خربشات

بعد عام واحد من الحب، وتسعة أعوامٍ من الخذلان...
الآن،
أحبكم جميعًا بالتساوي، وأكرهكم كلكم بلا نقصان...

تركوني وحيدًا بِجُرحٍ بعمق بئر يوسف،
وكلما أتت سيارةٌ، وأرسلوا واردهم،
أدلى دلوه بمزيدٍ من الماء.

إن قُدِّر لشيءٍ أن يحطمك، فاعلم أنك لم تكن صلبًا بالقدر الكافي لتمنعه أن يُقيم سطوته على بنيانك، ويجعله ركام..

صنعت لقلبي أبوابًا حديدية وأحكمت الغلق عليه،
وحين التفت لأراه كيف حُفِظ!!
وجدتهُ صدِءًا..

قالت:
حتى في أقصى درجاتِ قسوتك،
كانت عيناكَ تعتذرا..

حين نتعلم أن الخذلان سنة الحياة..
وأن العشم الزائد آفتها..
حين نعرف أن هناك قلب واحد يُحِب بصدق..
كل مائة ألف قلب..

وأن الصداقة ليست دائمة، تماما كباقي علاقات البشر،
تنضُج مشاعرنا حين نُتقن الرضا والصبر والمداراة، حين نعلم أن الغد ربما يكون أجمل، وربما لا ولكنّه حتمًا سيأتي، طالما لازال في العمر بقية..
هناك الكثير من العقول المليئة بالفراغ،
الفقيرة من الأفكار والمعاني،
هؤلاء فقط، هم من ترتفع دائمًا أصواتهم بالضجيج،
فسلامٌ للصامتون، الذين إذا تحدّثوا صنعوا فرقًا..

قالت:
وأنا بين كفيكَ كعصفور رقيق،
ما عاد يشغله أمر الطعام،
ولا عاد يشتهي الطيران والتحليق....

أنا ما قصدت أبدًا تركهم يا جدي،
ولكنَّهم فعلوا ما جعلني ألملم ما تبقى مني وأرتحلُ، دون أن أنظر خلفي وأرى انكساري بأعينهم.

أعدُك يا صديقي أن أكون دائمًا بجانبك، وتظل دائمًا بالقرب مني،
ولكن ليستمر ذلك،
عليك أن تحكم عليَّ من أفعالي وليس من حديثهم عني.
لا نتغير، ذاك عهدنا وبه نجدد....

تلك الرسالة باردة،
بلا معطفٍ يحتويها،
تماما كبرد هذا الشتاء، كتبت لكِ فيها خمسة كلمات،
الأولى "الميل"
الثانية "الشغف"
الثالثة "الرغبة"
الرابعة "التعلق"
الخامسة "الخذلان"

عفوًا، فلم أجد بينهم للحب مكان.

عليك يا صديقي أن توصد كل المنافذ أمام تلك الأشياء التي أخذت حيزا من رصيد كرامتك،
واستنزفت فيك كم هائل من طاقة الانتظار وجميل الصبر،
ووصلت متأخرة بعد أن فات أوانها،
وأصبح وجودها عديم المعنى،
فـ الانتظار مصير هزمت به أمم، وقرارات ذُلت بها شعوب،
وإذا كان للانتظار صولة وجولة، فـ لقلاع العزة والكرامة آتون حرب.

يا صديقي:
كُن شغوفًا بـ أحلامكَ، وكُن مؤمنًا بتحقيقها، فالسر كله يكمن في ثلاث؛
أولها الإيمان بما تحلم وتصديقه،
وثانيها الصَّبر على المعوِّقات وتخطيها،
وثالثها الكثير من المثابرة.
كل هذا في إطار حسن الظن بالله والثقة في قدرته،
والصبر على قضائه،
وحتمًا ستصل...

دائمًا ما ألملم ما انفرط من حبَّات نفسي خلف جدار كبريائي ولا يرانّي أحد،
فـ دموعي لم تكن يومًا إلا غالية، وللكرامة حلاوة روح مهما تعاظمت الجروح.

لماذا لم تختر مكانًا ثابتًا؟
فما اعتدت التأرجح والتردد،
ولماذا أنت دائمًا بالمنتصف؟ بيني وبين كل شيء؛
بين جفاف حبري وحروفي، بين مكتبي وفراشي، بين ثورتي وهدوئي، بين شكي ويقيني،
وبين صمتي وحديثي....

إنه لشعور غريب.. أن تتنقل مابين الفرحة، والحزن في بضع دقائق، ما بين السعادة والكآبة في مائتي لحظة،
مع الأسف..
أُجيد ذلك جيدًا منذ سنوات، واعتدت الأمر...
بالضبط كمن يركب أرجوحة الهواء ما بين ملاطمة الأرض وملاطفة السماء.
إن الليل يداعبُني بكثيرٍ من وهم ظنوني
وأنتظر الصُبح لكي يأتي يختطُف من القلبِ شجوني..

أيا غسقاً طال انتظاره وانقطع الأمل..!!
أيا قلباً زاد حنينه ولازال جُرحهٌ ما اندمل
بالله عليك أخبرني كيف السبيل الى الوصالِ
وما العمل ..؟؟

أنا ونفسي لم نعد صديقين،
لم تعد تروقني أحاديث الخلوة،
ولا العتاب المُفرط،
لم أعد حتى أُصارحها بيأسي كما تعودنا،
لم أتوقع يومًا أن نفسي هي الأخرى ستخذلني.

قالت :
وما حيلتي أيها المتيم و أنا لا أملك إلا مساء آخر وحبر وقصيدة ،
أكتب لعينيك وصوتك و وقع خطواتك..
أكتب لبهجة حضورك وأضع فوق السطور وردة وابتسامة أفتح بها نافذة في ذلك الركن الخجول من قلبي ،
و أُرتب حروف الشوق في كفيك.....
لو أن الاشتياقَ مسموعًا لملأت الكون ضجيجا باسمك ...

وهم من غرسوا في أعماقنا نارًا،
ورقصوا على خيوط الدخان المنبعثة،
وحين تملّكنا الهلاك وسقطنا في دائرة ضبابية من صنعهم،
نعتونا بالجُناة، واتهمونا بأن براءتنا لم تكن كافية، إلا لإدانتنا بالمزيد من التُهم،
بينما عبثًا قُيدت كل أفعالهم ضد مجهول..

سيأتي يومٌ ونلتقي من جديد على أطراف مدينتنا،
وسَتنتهي الحَرب، ويَعود الزيتَون فلسطينيًا، واليَاسَمين دمشقيًا، ويُشرق النرجس بين يديكِ،
وسأُخبركِ حينها، أنكِ كنتِ ولازلتِ الاحتلال،
الذي لم أشتهي يومًا فيهِ الجلاء..

أما بعد،
حبيبتي، لا أُخفيكِ سرًا، أني أخون فيكِ الكبرياء، وأتتبع أخبارك في الخفاء، فقط ليطمئن عليكِ قلبي،
ولا ينقطع فيكِ الرجاء..
والآن أسألكِ، بكل ما أحوي من صمت رهيب،
هل تصلكِ ضوضاء حنيني، أم لازال قلبك أصم؟

نحن مُرغمون على العيش بواقع يتنافى تمامًا مع مشاعرنا، ندور وندور راجين النسيان، ولكنَّا لا نملك سوى ذاكرةٍ وفية لا تُفرغُ ثقوبها، ولا تنفي ساكنيها، ولا تحرق صورهم، ولا تخنق أصواتهم.

كم أخشى عقلٍ فقد عقله وأضل صوابَهُ واجترَّ خُطاك
عابثًا بذكرياتٍ لا تموت.

ننجذب بشدة، ويحتوينا الشغف كمعطفٍ شتوي،
ثم نكتشف مدى انجذابنا وشغفنا المميت،
فنعود برسمِ خطة العودة بمنتهى الجدية والحزم،
ثم...
لا نعود،
لا نعود أبدًا كما كُنّا،
أبدًا.....!!

الساعة الخامسة والعشرون..!!

دائماً وأبدًا وفي كل العصور هناك إنسان يعطي ليأخذ غيره، وآخر كل مهمته أن يأخذ ما أمكنه الأخذ،
هذان خطان متوازيان لا يلتقيان إلا على طاولة الحساب،
فأحدهما دائن والآخر مدين،
فـ وربي إن للأخذ غربة، وللعطاء أُلفة،
فمهما أخذت فأنت الخاسر، ومهما أعطيت فأنت الرابح الأكبر،
هذا ميزان حال لن تشقى به أبدا، ولن يطاله التغيير، ما دمت واهبا ما لست له مدبرا، وما دمت تعلم أن النهاية للجميع وعلى حد سواء،
فلا تأخذ منها أكثر مما تحتاجه فقط، وتعلم كيف تُعطي ومتى، ولا تُفرِط في انتقاء من يستحق عطاءك، إن الله لا ينسى.

الأمر أشبه بشخصٍ أبكم، قرر أن ينزل إلى الماء المالح، ونسيّ أن جُرحًا في ساقِه لم يلتئم بعد،
فصار يصيح من الألم، في الوقت الذي حسبهُ الناس يصيح من الفرح.

هكذا هي بعض القلوب، تتألم بمنتهى القسوة،
ولا تستطيع البوح.

الأمرأشبه بطائرٍ جاب السماء سعيًا، حتى عاد فرِحًا برزق وفير، ولا يدري أن شجرة عُشِه قد قصفتها الرياح، فترك طعامَه بعيدًا عن الأنظار وركب السماء بحثاًعن بيتٍ جديد، فلفظته الرياح إلى جوارح الطيور، ليتلقفوه بمخالب الموت في محاولةٍ يائسةٍ منه للتشبث بالحياة...

ومن سيصدق أن بُركانًا يثور بداخلك، وأن بقلبِك أوراق شجرٍ ذابلة، ومدينة أحزان عتيقة قد أكلها الصدأ،
ومن سيعلم أنك رغم كل هذا لازلت واقفًا على قدميك، محتفظًا بهيأتك القديمة،
ولكنّ شيئًا، أفرغك من الداخل حتى أصبحت هشًا، ولم يتبق على انتهائك سوى أن تهب بعض الرياح.
ليس كُل سقوطٍ خسارة، أحيانًا نسقط من وادٍ غيرِ ذي زرعْ، لبستانٍ من الورود.

لا داعي لأن تعجبك شخصيتي وأفكاري وطريقة تفكيري وعقلانيتي، أو حتى ينال استحسانك أسلوبي ومبادئي وقراراتي،
لأنه في النهاية أنا لا أسعى لإرضائك على الإطلاق،
فالكرامة كالقيم لا تقدر بثمن، وكيف لِمن لا يُقدر معنى القيمة أن يعرف معنى الكرامة؟!!

في الوقت الذي أصبح فيه قلبك أشد قسوة وصلابة من صخرة صماء، وظننت أنك تخبئ بين ضلوعك قطعة جماد سوداء،
أنبت الله لك من بين الشقوق ورداً ورياحين
وأزاح عنك ذلك الحزن الدفين،
وأراك لطفه وكرمه أيها المسكين...

ومن لنا سوى الله..؟

في غيابك يتآكل جسدي، ويُنبت أشجارًا،
فـ يأكُل الطير من رأسي،
حتى صرت هشيمًا تقتلعني الرياح...

ألا ليت لو عُدت لي..

إن جُلّ مشكلتك يا صغيرتي، هو أنكِ تملكين عقلًا ناضجًا إلى الحد الكافي لتعتزلي الناس، ولكنكِ في الوقت ذاته تملكين قلـــبًا هشـّاً كقلب طفلة ترتعد من العُزلة،
مسكينةٌ أنتِ،
كم أنتِ تائهة بين حكمة عقلك وبراءة قلبك...

إن الليل يداعبُني بكثيرٍ من وهم ظنوني
وأنتظر الصُبح لكي يأتي يختطُف من القلبِ شجوني..

أيا غسقاً طال انتظاره و انقطع الأمل..
أيا قلباً زاد حنينه ولازال جُرحهُ ما اندمل.
بالله عليك أخبرني كيف السبيل الى الوصالِ
وما العمل ..؟!

وكانوا كلما رأونا نبتسم، ظنوا أن الألم يومًا لم يطرُق لنا بابًا..
لم تكُن أبدًا وجوهنا مرآة لما يحدث بالداخل، بل كانا ضدان لا يلتقيان.
فابتسمنا حمدًا لله وشكرا على ابتلاءاته، وابتسمنا حتى لا يمن أحداً علينا، ولو بكلمة "ما بك"..
ابتسمنا والله يعلم ما بداخلنا، وما أردنا إلا أن تروا منّا كـــل جمـيل..
اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطان..